رحلات

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذه رحلات وأسفار ، صور شاهدها قلم مبين ، وناهيك بقلم يحمله الدكتور عبد الوهاب عزام

وقراء الرسالة لا شك يعرفون الدكتور الفاضل باحثاً مدققاً وعالماً متمكناً ، وناقداً بارعاً ، ورجلاً تتمثل كل معانى الرجولة فى أخلاقه وفى سلوكه ، ولكن قلّ فيهم من يعرفه شاعراً موهوباً من الطراز الأول ، يستطيع أن يجرى فى الحلبة فيسبق ، لأنه رجل لا يحب أو قل لا يحسن الإعلان عن نفسه ، فهو يجاهد ويجاهد حتى يرضى بالجهاد ربه ونفسه ، ثم لا يعنيه بعد ذلك مآرب ، فيرضى من الغنيمة بالإياب

وشاعرية الأستاذ عزام تتجلى فى قصائده « المكتمة » أو قل الموءودة ، وهو لا شك محاسب بين يدى الله « إذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » ، وإن هذه الشاعرية لتتجلى أيضاً فى آثار قلمه فى الوصف والإفصاح عن إحساسه بالمرئيات ، فأنت إذ تقرأ هذه الرحلات ، تستجد فيها دقة الباحث ، وحكمة العالم ، وظرف الأديب ، وخيال الشاعر وعاطفته . وأى شعر أبلغ من قول الدكتور ، وهو يجيل النظر فى أرجاء سيناء : « وأصبحنا نطل على بيداء ليس فيها إلا رمال تتخللها أعشاب وأشواك ، ولكنها سيناء ! ولله ماذا ضمنت سيناء من الخير والعبر ! فيها الطور الذى آنس موسى من جانبه نور الهدى ، وعليها مدّ الزمان وجزر بالغير سميدة وشتية ، والجيوش هازمة ومهزومة ، فتمثل جيوش الفراعنة ذاهبة إلى الشام وآيبة ، أو جيوش بابل وفارس مطرودة وطاردة ، ثم جيش الاسكندر وجيوش الرومان ، ثم جيوش العرب والترك دول بعد دول ، وسطور تمحو فى صحائف الزمان سطوراً ، كما خط فى القرطاس سطر على سطر ، تزاحمت الذكريات ، وترادفت العظات »

بل أى شعر أفصح من قول الدكتور على قبر صلاح الدين الخالد : « ثم رقينا درجات قليلة إلى باب آخر ؛ فيالك حجرة جمعت من العظمة سورة متلوة على الدهور ، وحويت من عبر التاريخ ما تضيق به السطور ! يالك حجرة كعنوان الكتاب الكبير يقتحمه النظر فى لحظة ، ثم لا يزال ينفتح على الصفحة بعد الصفحة ! يالك من مكان وسع ملء الزمان ! ويالك من أحجاز طويت على أعصار ! مجد رجف به الشرق والغرب ، وطأطأ له الصديق والعدو . هذا مرقد « صلاح الدين » ، أطفنا بالقبر ووقفنا هنيهة خاشعين ، ووقعت أبصارنا على صورة تمثل المجاهد العظيم ؛ ثم قال أحدنا : أين التاج الذى وضعه على القبر ملك الألمان غليوم ؟ قال دليلنا : أخذه الإنكليز ! قلت : إن مجد « صلاح الدين » أعظم من أن يزيده غليوم وأجل من أن ينقصه الإنجليز ، فليعطوا أو فليأخذوا ، وليمدحوا أو يذموا ، فذلك صرح لا تناله أيديهم ، ومجد قصرت عنه أمانيهم ، وحلبة التاريخ تشهد من كان الفارس الأمجد ؟! »

فهذا هو إفصاح الشاعر وخياله وإحساسه . . . وهذا هو الأسلوب الذى صور به الدكتور الفاضل كل المشاهد التى رآها والآثار التى وقف بها فى حلب ودمشق وبغداد وبلاد الفرس وموطن الأتراك ، ثم فى الحجاز مشرق النور المحمدى ، وفى أوربا حيث السفوح كلها البهاء والرواء والشعر ، فجاءت هذه الرحلات صورة قوية من عقل الرجل وقلبه ، فهى فوق ما فيها من علم وتعريف آيات بينات من الأدب الوصفى الرائع ، وقطع من الشعر المرسل تفيض بالعواطف والأحاسيس ، وتملأ نفس القارئ بالعظات والعبر ، والحكمة والبهجة . وبهذا المعنى ستظل رحلات عزام خالدة خلود العواطف الإنسانية ، باقية ببقاء الإحساس القوى فى نفس الكبير